بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة بعنوان:

إذا استنار العقل بالعلم أضاء الدنيا(١)

الإسلام شيء.. والمسلمون شيء آخر

لماذا تأخر المسلمون المعاصرون وتقدم آخرون؟

آثار إنارة العقل بالعلم في صناعة التقدُّم والازدهار

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

المفكر والداعية الإسلامي - عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الجمعة: ١٩ شوال ١٤٤٦هـ / ١٨ أبريل ٢٠٢٥م

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاما على عباده الذين اصطفى، وبخاصةٍ النبيُّ المصطفى (ﷺ) وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

الحمد لله الذي أعزَّ الإنسان بالعلم، وشرّفه بالعقل، ورفع من شأنه بالعمل الصالح والإعمار.

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، وفضَّل أهل العلم على غيرهم، فقال في محكم التنزيل: (...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ..) (الزمر: ٩).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً تُنير العقول، وتُحيي القلوب، وتُسعد الكون والحياة.

وأشهد أن سيدنا محمدًا (ﷺ) عبدُ الله ورسوله، نبيُّ العلم، والحلم، والرحمة، والحكمة، صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها المسلمون: أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله، فإنها وصيه الله للأولين والآخرين، قال تعالى: (...وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ ...) (النساء: ١٣١)، وقال عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢).. أما بعد،،،

(١) هذه الخطبة كُتبت بشكل تجديدي وإثرائي؛ للإسهام في زيادة وعي السادة العلماء والخطباء، في إطار تحقيق أهداف خطبة الجمعة التي حددتها وزارة الأوقاف وللسادة الأئمة والدعاة الاطلاع عليها ودراستها، واختيار ما يناسبهم منها..والله ولي التوفيق.

أيها المؤمنون:

اعلموا أن:

- استنارة العقل بالعلم أسعد الدنيا وسهل المعيشة في هذه الحياة
- استنارة العقل بالعلم أدي إلى اختراع الكتابة وتناقل الخبرات والخيرات عبر فصول التاريخ الإنساني المديد.
- استنارة العقل بالعلم أدى إلى بناء الحضارة بشقيها (المادي والمعنوي).
- استنارة العقل بالعلم أسهم في تفاعل الحضارات.
- استنارة العقل بالعلم أدى إلى اختراع المحركات والمركبات والطائرات
- استنارة العقل بالعلم أدى إلى صعود الإنسان إلى الفضاء
- استنارة العقل بالعلم أدى إلى وصول الإنسان إلى أعماق وقيعان البحار والمحيطات
- استنارة العقل بالعلم جعل بإمكان الإنسان أن يطوف حول العالم في ساعات أو أيام، في حين كان هذا مستحيلا قبل مائة عام.
- استنارة العقل بالعلم أدى إلى اختراع الأدوية والأجهزة الطبية، وعلاج أمراض ما كان يمكن علاجها من قبل.
- استنارة العقل بالعلم أدى إلى اختراع الفضائيات والستالايت والانترنت وما نجم عن ذلك من جعل العالم قرية صغيرة لا يكاد يقع الحدث في مكان إلا وينقل في نفس اللحظة إلى كل مكان.. وغير ذلك كثير..

إننا أمام موضوع في غاية الأهمية، غير أن العقل لابد له أن يسبح في بحار العلوم لينير الدنيا شريطة أن يكون مسيجا بسياج القيم النبيلة، حتى لا يشذ أو يضل.

عباد الله:

حديثنا اليوم يدور حول قضية مهمة جدًّا من قضايا البناء الإنساني، بناء الحياة، بناء الحضارة، ومفتاح النهوض والتقدم والارتقاء والازدهار، وهى قضية إنارة العقول بالعلم وأثره في إنارة الحياة، فالعلم نور يهدي، ويَبنى، ويَرفع، ويُنمى، ويُكثِّر، ويُطور، ويُجدد، ويُرقِّى، ويُسعد، ويُريح... ذلك لأن العقل إذا استنار بالعلم، أنار الدنيا، والأمم تُبنى بالعقول، والعقول تُبنى بالعلم، ومتى ما استنار العقل بنور العلم، انعكس أثره على الفرد والمجتمع وعلى الحياة وعلى الإنسانية عامة، فارتفعت الأمم وازدهرت الحضارات.

أما الجهل فيُضل ويُردي ويهدم ويؤخر ويوجه البَوْصَلة إلى الوراء...

مدخل: جهاد الإعمار

وقبل أن نتحدث عن عمارة العقل بالعلم وأثره في إنارة الحياة، ينبغي أن نوضح أن الجهاد الأصغر هو الجهاد في ميادين القتال، أما الجهاد الأكبر والحقيقى والمستدام، فهو جهاد النفس، وجهاد الإعمار.

ويشمل:

– **إعمار الحياة بالإخلاص**، في العمل، والإخلاص للدين، والوطن، والإخلاص للإنسان...إلخ.

– **إعمار النفس بالأخلاق والقيم**، ذلك لأن طاقة النفس الحقيقية هى التى تُبنى على القيم الرفيعة.

وعلينا أن نعلم جميعًا أن عدوك يَهابُ فيك: قدرتك على إعمار نفسك؛ قدراتك على إعمار حياتك، قدراتك على إعمار وطنك...

وكلما استكملت دولة ما عناصر بنائها الداخلية، حُصِّنت، وكانت أقوى مِن أي دولةٍ تمتلكُ قوةً عسكريةً جبّارةً ولكنها تفتقر إلى هذه العناصر الخاصة بالإعمار.

ولعل أوضح مثال على ذلك: الاتحاد السوفيتي السابق، فقد كان إمبراطورية عسكرية كبرى، وانهارت هذه الإمبراطورية بلا قتال عام ١٩٩٠؛ لأنها افتقدت طوال عقود تاريخها من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٩٠ إلى القوة الأقوى، وهي قوة: الإعمار الداخلي للإنسان.

وفي تراثنا الإسلامي الخالد، وفي قرآننا العظيم، يقول الله تعالى: (...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (البقرة: ٢٤٩).

إن هذه الفئة القليلة انتصرت، ليس بقوة السلاح والعدة والعتاد؛ ولكن بقوة الإيمان، بقوة النفس، بقوة البنيان المرصوص، بقوة الإعمار الداخلي داخل هذه القلة، ومِن قبل ذلك كله: انتصرت بعونِ الله ومَدَدِه وتوفيقِه.

وهذا المبدأ (جهاد الإعمار)، كما ينطبق على الدول، ينطبق على الأفراد؛ فكل إنسان إذا استثمر وجاهد في بناء أولاده بالعلم، والإيمان، والخُلُق الطيب، والوطنية الصادقة والصحيحة، فإن مجموع أفراد المجتمع سيكونون وطنًا قويًّا مهابًا.

وعلينا أن نعلم أن النفوس والأوطان –في الحقيقة– لا تنهار إلا من الداخل، وكلما كان البناء الداخلي سواء بناء النفس والعقل أو بناء الدول من الداخل قويا ومتينا ومتجذرا؛ كنا أقوياء في مواجهة التحديات مهما كانت، لذلك فإن أهمية الإعمار: إعمار النفس، وإعمار الوطن، وإعمار الحياة من الأهمية بمكان، لأننا إذا عمرنا الداخل انتصرنا في كل ميدان سواء في ميادين التقدم والنهوض أو في مواجهة المشكلات والأزمات والتحديات.

والغنى المادي –على الرغم من أهميته– فإنه ليس له قيمة بدون الإعمار الداخلي؛ لأن هذا الغِنى لن يَنتج عنه قوة حقيقية، وهذا هو الفرق بين التربية المادية، والتربية على القيم الإسلامية الرفيعة والنبيلة.

وسنتحدث في هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: العقل... بين مآلات الحضور والفعالية أو الغياب والتعطيل

لماذا تأخر المسلمون المعاصرون وتقدم آخرون؟!

كان المسلمون العالم الأول، وقت أن تمسكوا بمنهج الله الشامل الكامل الصالح لإدارة الكون وإسعاد الحياة... في حين أن الناظر المدقق في حال كثير من الدول الإسلامية في عصرها الراهن، يلحظ أنها تعيش وضعا لا تُحسد عليه... والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بقوة: لماذا هذا؟

ولعل الإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا عدة دراسات في محاولة لاستقراء هذا الوضع وتحليله.

نعود أولا إلى الوراء في العصر الإسلامي الأول، ونقارن بين وضع المسلمين فيه، وبين وضعهم في العصر الحديث...

لقد شاء الله تعالى منذ نحو ١٤٥٩ عاما (وقت كتابة هذا الموضوع في عام ١٤٤٦هـ + ١٣ سنة في مكة من البَعثة إلى الهجرة) أن يبعث الله تعالى في الأميين رسولا منهم؛ يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، ويشعل مشاعل الهدى والهداية والنور والعلم ويقضي على الجهل؛ ويُشرّع نوافذ العقل البشري على مصراعيها أمام الحقائق الكبرى المكنونة في: كتاب الله المنظور (الكون الفسيح)، وكتاب الله المسطور (القرآن العظيم).

دور العقل في نهضة المسلمين الأوائل:

رفع الله (عز وجل) مقامَ العقل إلى أرفع المقامات، وجعله من أجلّ نِعمه على عباده؛ ولِمَ لا، والعقل هو ذلكم الجهاز العجيب المعجز الذي خلقه للإنسان، وميَّزه به عن سائر المخلوقات؛ ليكون بمثابة الموجه والمحرك والقائد للإنسان، به يحول الصور والأصوات والأشكال والحركات إلى معانٍ ودلالات، وبه يتأمل.. يتدبر.. يتفكر.. يتذكر.. يحلل.. يختار.. يقرر.. يُركب... يحيا الإنسان به حياة طيبة، وبه يميز بين الخير والشر، والهدى والضلال.. وأعدَّه الله (تعالى) لاستقبال أنوار الوحي الشريف المعصوم (النقل)، وجعل **التفكر فريضة إسلامية**، وحرَّم على

الإنسان أن يعتدي على هذا الجهاز بأي صورة من صور الاعتداء، أو تعطيله عن عمله.. كما شرَّفه غاية التشريف بأن جعله مناط التكليف.

وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة ترمي إلى **تدريب العقول** على استقراء واستلهام آيات الله وآلائه في كتابيه: (المسطور والمنظور)، **والسباحة الفكرية** في ملكوته شمالا وجنوبا شرقا وغربا.. طولا وعرضًا وعمقًا، وبشكل دائب لا ينقطع؛ للارتقاء به في مراتب التفكير العليا، وحتى يظل في كنف أنوار الله، بعيدًا عن الشطط أو الانحراف..

ومن رحمات الله تعالى بالإنسان أنه **جعل للعقل طاقات، ولم يحمله ما لا طاقة له به**؛ بل جعل له حدودًا يقف عندها ولا يستطيع أن يتجاوزها، كالغيبيات التي ليس للعقل فيها إدراك على التفصيل، ولا شك أن في هذا صيانة للعقل البشري من الانحراف والزيغ والفرقة والخلاف.

وبناء على ما سبق فإن القضية المحورية في حديثنا عن التقدم والتأخر هي قضية العقل... تلك النعمة التي ميز الله بها الإنسان عن غيره... العقل الذي يرفع أمما إلى أعلى الأعالي حال توظيفه واستثماره أفضل استثمار لخدمة الإنسان والكون والحياة.. **وعندما وظف المسلمون عقولهم خير توظيف كتب الله تعالى لهم الريادة والسيادة والسعادة...**

كيف وظّف المسلمون الأوائل عقولهم لخدمة العلم والدين والأوطان؟

كان العصر الإسلامي الأول هو العصر الذهبي لتدوين العلوم؛ ففي أقل من خمسين عامًا من آخر الدولة الأموية إلى صدر الدولة العباسية كانت أغلب العلوم قد دُونت ونُظِّمت، وخصوصًا علوم الرياضة والمنطق والفلسفة وعلم الكلام.

وكان نشاط المسلمين في ذلك يلفت الأنظار ويستخرج العجب، فقد نظم العلماء أنفسهم فرقًا كفرق الجيش، كل فرقة تغزو الجهل أو الفوضى في ناحيتها حتى تخضعها لنظامها...

- فرقة للغة
- وفرقة للحديث
- وفرقة للنحو
- وفرقة لعلم الكلام
- وفرقة للرياضيات، وهكذا..

وهم يتسابقون في تدوين العلم وتنظيمه.. تسابقت قبائل العرب في الدفاع عن الدين والوطن، كل قبيلة تود أن تكون السابقة في الميدان، ووجد في ساحة الميدان العلمي قادة بارزون يتنافسون في الابتكار، فإذا فاز أبو حنيفة بوضع الفقه، ثارت حماسة الخليل بن أحمد فيضع العَروض ويرسم المنهج لمعجم اللغة..[٢].

وكان لكل علم من هذه العلوم –سواء العلوم النقلية أو العقلية– منهج خاص في التأليف والبحث والدراسة..

- فمنهج **العلوم النقلية** كان يعتمد على الرواية وصحة السند.
- ونجد أن **المشتغلين بالحديث** وهم (المحدثون) كانوا مشغولين بجمع الأحاديث واختبار أسانيدها؛ لمعرفة جيدها من رديئها، فضلا عن دراسة الرواة؛ لمعرفة أسانيدهم وأحوالهم.. إلخ.
- أما **المفسرون** فكانوا يعتمدون على نقل ما روي عن الصحابة والتابعين من تفسير الآيات..
- ومثل ذلك يُقال في **علوم اللغة والأدب**، فاللغوي يَروي ما سمع من العرب أو يَروي ما سمع من أعرابي أو عالم، وكثيرًا ما كان يذكر السند مثلما نراه في كتاب الأغاني للأصفهاني.

(٢) لمزيد من المعلومات: يراجع: ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

- أما **العلوم العقلية** كالرياضيات والطبيعة والطب والفلك –والحديث للأستاذ أحمد أمين– «فكانت تعتمد على معقولية الحقائق وامتحانها، إما من طريق المنطق أو عن طريق تجربة الحقائق وامتحانها عمليًّا، فإذا ذكرت حقيقة فقلما يعنون بقائلها، ولكنهم يعنون بوضعها تحت قواعد المنطق، وهل مِن قوانينه ما يؤيدها أو ينقضها؟ وكذلك قد يمتحنونها عمليًّا؛ ليرقبوا نتيجتها، فيحكموا عليها بالخطأ أو الصواب.
- وثمة **علوم أخرى أخذت بالمنهجين كالفقه**؛ فكثير من الفقهاء لم يعتمدوا على المنهج الأول من الاستدلال بآية أو حديث فقط، بل استعملوا الدليل المنطقي في تأييد مذهبهم والرد على مخالفيهم في الرأي.. وهكذا.

وكان لكل منهج أثر كبير في أصحابه من حيث الأخلاق العلمية والصفات العقلية، فالأولون قصروا اتجاههم على التحقق من صحة النقل، والآخرون أطلقوا لعقلهم العنان...»..

على أية حال نقول: إن هذا التنافس أثرى الحركة العلمية وطورها وقتذاك، وظلَّ المسلمون طوال حياتهم العلمية يعتمدون بصورة معينة على هذه الثروة التي وضعت في ذلك العصر.

وهكذا كان دور العقل في نهضة المسلمين الأوائل جليًّا، ومن ثمَّ نستطيع أن نؤكد أن المسلمين كانوا هم الرواد الذين أبدعوا المنهج العلمي، وهم الذين أضاءوا مشاعل الحضارة الإنسانية، وقت أن كان الأوروبيون يعيشون تيه الظلام والتخلف..

لماذا نهض المسلمون الأوائل وكونوا الحضارة الإسلامية الزاهرة المثمرة؟

لقد نهض المسلمون:

- عندما تعلقوا بحبال الله (تعالى).
- وعندما كانت قلوبهم متعلقة بالوحي الشريف المعصوم..
- وعندما كان منهجهم في الحياة ونظرتهم لها تنطلق من المنظور الإلهي للإنسان والكون والحياة.
- وعندما أيقنوا أن العقل شريك النص في معرفة الحقائق.
- نهضوا عندما تحررت عقولهم من أغلال الجهل وأسر التأثيرات الفلسفية الشاذة التي تسعى للتشويش على منظومة القيم التي جاء بها رسولنا الكريم (ﷺ) ومن بينها القيم الدافعة للتقدم.
- نهضوا عندما كانوا يحترمون الوقت باعتباره مطلبًا إيمانيًّا، كما في الصلاة والزكاة والحج وغيرها من العبادات، وكلها مرتبطة بالوقت، وكأن الله تعالى يريد أن يدربنا على احترامه واتخاذه منهجًا للحياة.
- نهضوا عندما كانوا على قلب رجل واحد.
- نهضوا عندما كانوا كثيري العمل، قليلي الكلام، ملتزمين الصدق، بعيدين عن الكذب، يتسمون بحسن الخلق.. يعملون بحديث النبي (ﷺ) : (أنَا زَعِيمُ بَيتٍ فِي رَبَضِ الجنةِ، لِمَنْ تَرَكَ المِراءَ وإنْ كان مُحِقًّا، وبَيتٍ فِي وسَطِ الجنةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وإنْ كان مازحًا، وبَيتٌ فِي أعلى الجنةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ)(٣).
- نهضوا وتقدموا عندما كان اختلافهم في الفكر والرأي والتعبير..إلخ، رحمة بهم، ورحمة بغيرهم من شتى مفردات الطبيعة والكون؛ بل كان اختلافهم وتنوعهم قيمة مضافة لهم ولحضارتهم، بل كان اختلافهم في الرأي وحرية التفكير نموذجًا لأدب الحوار والمناقشة واحترام أقدار الله في الكون وفي الحياة وفي

(٣) أخرجه الإمام أبو داود في سننه.

الفروق الفردية.. في الفكر، والفهم، والفقه، والتخصص، واختلاف مستويات التفكير لدى الشخص من وقت إلى آخر، ومن حالة إلى حالة، ومن موقف إلى آخر. وكانوا يؤمنون أن اختلافهم وتنوعهم تطبيقا وتحقيقا لمراد الله تعالى وسنته في خلقه وفي كونه وفي الحياه، وكان اختلافهم في الرأي والفكر تمتينا للعلائق –كما كان الحال على سبيل المثال بين الإمام مالك والإمام الليث بن سعد (رضى الله عنهما) في المُسَاجلة التاريخية الخالدة التى دارت بينهما، والتى يجب أن نعلمها جيدًا ونُعلِّمَها لشبابنا المسلم ونرسخها في قلوبهم– ولم يكن اختلافهم قطعا للأواصر كما عليه الحال في واقعنا المعاش..

يقول الشافعي (رحمه الله) –وهو مَن هو.. ملء السمع والبصر.. علمًا وحلمًا وخلقًا وحكمةً– يقول: «رأيي صَوابٌ يَحتَمِلُ الخَطأ، ورأيُ غَيري خَطأ يَحتَمِلُ الصَّوابَ»، وهذه قاعِدةٌ أصولية، ومن المهم جدا تعميمها واستخدامها لتكون منهج حياة لنا جميعًا، حيثُ يَغلبُ فيها الظنُّ في تقدير الأمور، ومن ثم لا يجدر بأحدِنا أنْ يُنزّه نفسَهُ عَن الوقوع في الرأي الخاطئ. مع الأخذ في الاعتبار أن عبارة الشافعي ليست على إطلاقها ذلك أن الشافعي والأئمة ثبت عنهم إنكار آراء بعض الناس في الفقه والعقيدة، خالفت الكتاب والسنة..

- نهضوا وتقدموا عندما تواضع أمير المؤمنين ونزل عن رأيه؛ امتثالا لرأي امرأة، وهو الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي كان يخطب الجمعة، فدعا إلى التيسير في المهور، وأراد أن يضع حدًّا أقصى للمهور، فقال: «لا ينبغى أن تزيدوا –أي في المهر– على أربعمائة درهم»، فلما نزل، قالت امرأة من المسلمين: أيعطينا الله، وتمنعنا أنت يا ابن الخطاب؟!، أمَا قال الله تعالى: (...وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا...) (النساء: ٢٠)، فعاد إلى المنبر وقال: صدقت امرأة وأخطأ عمر، كل الناس أعلم منك يا عمر. نزل عن رأيه فورًا، وبدون استكبار؛ لأنه كان يوقن أن الفهم والأفهام والإفهام، ووقت الفهم أيضا، رزق من الله تعالى.
- نهض المسلمون عندما كانوا لا يلتفتون إلى الفوارق في اللون، والجنس، والعرق، والنسب؛ فالناس كلهم لآدم، وآدم خلق من تراب، والتفاضل في الإسلام بين الناس بالإيمان والتقوى، بفعل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، ومن ثم نهضوا عندما تمثلوا قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:١٣) وقول رسولهم المعصوم (ﷺ) : (لا فَضلَ لعَرَبيّ على عَجَميّ، ولا لعَجَميّ على عَرَبيّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ إلَّا بالتَّقْوى، الناسُ من آدَمَ، وآدَمُ من تُرابٍ)[٤].
- نهضوا عندما كانوا يدركون المعنى الحقيقى للتنوع والاختلاف، وخصوبته، وأهميته للفرد والمجتمع. وهكذا كان الاختلاف في الرأي وسيلة للتقارب والتآلف وتعظيم الحق وإحقاقه، وتغليب المصلحة العليا للمسلمين، وتنحية الأهواء مكانا قصيا..
- نهضوا عندما كانوا يعلمون نواقض الوضوء، وفي الوقت ذاته يعلمون نواقض الحضارات..

(٤) شعيب الأرناؤوط تخريج زاد المعاد – صحيح.

نهضوا عندما كان الواحد منهم يفكر، ويعمل، ويبدع إلى آخر لحظات حياته، متمثلا قول الصادق المعصوم عليه الصلاة والسلام: (إنْ قامَتِ السَّاعةُ وفي يدِ أحدِكُم فَسيلةٌ فإنِ استَطاعَ أن لا تَقومَ حتَّى يغرِسَها فلْيغرِسْها)(٥).
ولا شك أن ذلك قمة الحضارة والتحضر والتقدم.

وهكذا.. تقدّم المسلمون؟ حين طبّقوا الإسلام بصدق في عهد النبي (ﷺ) وصحابته، فبفضل تمسّكهم بالوحي، واتقان العمل، وتفعيل دور العقل، والتحلى بالأخلاق، تحوّلوا من قبائل متناحرة إلى أمّة قائدة للعالم في ثلاثين عامًا فقط.
وفي العصر الأموي والعباسى والأندلسى ازدهرت العلوم والفنون والآداب والفلسفة والطب، وكانت مدن المسلمين الكبرى ك"بغداد" و"القاهرة"، و "دمشق"، و"قرطبة" منارات للحضارة الإنسانية، وظهر عدد كبير من العلماء العظام أمثال ابن سينا، وابن الهيثم، والرازي، والخوارزمى، الذين علموا العالم وجعلوا من العلوم جسرًا بين الإسلام والتقدم.. بين الإسلام والحضارات الإنسانية..

لماذا تأخر المسلمون المعاصرون وتقدَّم آخرون؟!

هذا السؤال من أكثر الأسئلة إلحاحًا في واقعنا المعاصر، ويعيد نفسه باستمرار، وقد طرحه كبار المفكرين والعلماء أمثال: الشيخ محمد عبده، والأمير شكيب أرسلان، وغيرهما، وهو سؤال يحمل في طياته ألمًا وحسرة على تراجع الأمة الإسلامية بعد أن كانت في صدارة الحضارة وقيادة العالم لعدة قرون.
وللإجابة عن هذا السؤال الجوهري، لا بدّ أن نُحلِّل جذور الأزمة؛ لنقف على أسباب تأخُّر المسلمين في العصور الأخيرة من جهة، وأسباب تقدُّم غيرهم من جهة أخرى، مع بيان الفرق بين حقيقة الإسلام وسلوك بعض المسلمين، ودور العقل في النهضة والتقدم.

أولًا: أسباب تأخُّر المسلمين في العصور الأخيرة

- **الاستعمار والاحتلال الذي حل ببلاد المسلمين:**

لعل من أهل الأسباب التى أسهمت في تأخر المسلمين هو الاستعمار والاحتلال الغربي الذي حلَّ ببلادنا، وعمد إلى تجهيل المجتمع، ونشر الفوضى، والعشوائية الفكرية، ومحاولاته طمس الهوية الإسلامية، وإشاعة الجهل والتخلف في بلادنا العربية والإسلامية، ومحاولاته إبعاد المسلمين عن كتابهم المقدس القرآن العظيم، من خلال محاولاته الخطيرة والمتواترة إبعاد اللغة العربية على مسرح الحياة، وأيضا محاولاته –من خلال بعض المستشرقين وأبواقهم المأجورة في بلادنا– التشكيك في العقيدة، وفي قدرات الإسلام على إدارة الحياة، وفي نشر الإلحاد، ناهيك عن إضراره البالغ بمنظومات التعليم والإعلام، والتركيز على التعليم النظري، وإبعاد التعليم التجريبى وتفريغه من مضمونه، واستقطاب العقول الفارقة (العربية والمسلمة) لإحداث النهضة والتقدم في بلادهم، وغيرها من الأمور التي لا تخفى على اللبيب، لتبقى بلادنا المسكينة سوقا كبيرا ومستداما لمنتوجهم وصناعاتهم....إلخ.

- **الابتعاد عن تعاليم الإسلام الحقّة:**

ونتيجة لما سبق وللاختراقات الثقافية المتواترة فإن كثيرًا من المسلمين اليوم يكتفون بالقشور، ويغيب عنهم جوهر الإسلام وروحه وتعاليمه التي تدعو إلى العلم، والعمل، والإبداع، والعدل، والإتقان، والرحمة.

- **الجهل والأمية:**

وقد نتج عما سبق أيضا تفشى الجهل والأمية في أمةٍ أول آية نزلت من كتابها كلمة "اقرأ"، نجد تفشّى الجهل وتراجُع مكانة العلم، وكأن العلاقة مع القرآن أصبحت شكلية.

(٥) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد.

- **استقطاب العقول الفارقة إلى بلادهم وقتل روح المبادرة:**

عمد الاستعمار القديم والجديد والمتجدد إلى قتل روح المبادرة وإهمال العقول، وتفريغ الطاقات، وبث روح اليأس واللامبالاه في نفوس شبابنا.

- **التمزُّق والتفرّق:**

غياب الوحدة، وانتشار النزاعات الطائفية والعرقية، أضعف الأمة وفرّق صفها.

- **التقليد الأعمى ورفض التجديد:**

الجمود والافتخار بالماضى دون عمل مبدع يرقى الحياة، ودون نظر في فقه الواقع، وضعف الاجتهاد في فترة زمنية جعل كثيرًا من المسلمين أسرى التاريخ لا صُنّاع مستقبل.

- **التواكل والدعة:**

سادت أفكار خاطئة عن القضاء والقدر، فتُركت الأسباب، وعُطّل العمل، بينما الإسلام يدعو إلى الجمع بين التوكل والسعي الجاد.

ثانيا: أسباب تقدم آخرون

- **الاهتمام بالعلم والبحث العلمي:**

لقد جعل الآخرون من العلم أساسًا لبناء حضارتهم، فاستثمروا في التعليم والجامعات ومراكز البحوث والتطوير.

- **العمل الجاد والانضباط:**

احترموا الوقت والقوانين، وأسسوا مجتمعات تنتج وتُنجز، لا تنتظر المعجزات التي انتهت بموت خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

- **أنظمة المراقبة والمتابعة الدقيقة والمساواة:**

فهناك أنظمة تراقب وتُحاسب، تمنح الحقوق وتكبح الفساد، على الرغم من أنها غير إسلامية، لكنها أخذت بروح من العدل أمر بها الإسلام... ومن المأثور عن سيدنا الشيخ محمد عبده (رحمه الله) عندما ذهب الى مؤتمر باريس عام ١٨٨١م ثم عاد فيما بعد الى مصر، أنه قال حينها مقولته الشهيرة: "ذهبت إلى الغرب فوجدت إسلامًا ولم أجد مسلمين، ولما عُدت إلى الشرق وجدت مسلمين ولكنني لم أجد إسلامًا".

- **تشجيع الإبداع والابتكار:**

وفّروا بيئة حاضنة للأفكار الجديدة، ورعوا المبدعين، فقادوا العالم في التكنولوجيا والاقتصاد والثقافة والإعلام وفرضوا ثقافتهم وإرادتهم على الآخرين.

- **حرية التفكير والتعبير، والحوار والنقد البنّاء:**

كانت مفتاحًا للنهضة والتقدم، في هذه البلاد.

الإسلام شيء، والمسلمون شيء آخر!

هذه العبارة العميقة التى تتردد على ألسنة المفكرين، تعبّر بدقة عن الفجوة بين الإسلام كدين سماوي معصوم، والمسلمين كممارسين عرضة للتقصير والخطأ.

فالإسلام دين متوازن شامل جاء ليحرّر العقول، ويُعلى قيمة الإنسان، ويُؤسّس لحضارة تجمع بين الروح والمادة، العلم والإيمان، العدل والحرية.

لكن المسلمين – في كثير من العصور – قصروا في تطبيقه، وتخلّوا عن قيمه، فظهر الكسل، والانقسام، والجهل، وتراجعوا حضاريًّا حتى صار واقعهم مناقضًا لما يدعون إليه.

العقل.. مفتاح النهضة

من أهم أسباب تأخُّر المسلمين أنهم أهملوا دور العقل، الذي عظّمه الإسلام وكرّمه:

القرآن يدعو إلى التعقل والتفكر والتدبر، فـ: تسع وخمسين آية في القرآن تتحدث عن العقل بمشتقاته، في تأكيد على أن الإيمان لا ينفصل عن العقل.

كما أن الإسلام رفض الإيمان الأعمى، وطالب أتباعه بتحرير عقولهم من الخرافات، وفهم الدين فهمًا واعيًا، لا تقليدًا موروثًا.

لكن المسلمين في عصور الانحطاط أهملوا العقل، وجمدوا على أقوال السلف، وخافوا من النقاش، وحاربوا الفلسفة والعلوم العقلية، فخسروا السباق الحضاري.

لكنهم تقدّموا يوم أن استخدموا عقولهم، فترجموا علوم اليونان، وابتكروا، وفتحوا أبواب الاجتهاد، وأسّسوا حضارة عظيمة سادت العالم قرونًا.

وهكذا.. فإن تأخُّر المسلمين ليس بسبب الإسلام، بل بسبب بُعدهم عنه.

ولو عادوا إلى دينهم الصحيح، وطبّقوه بروح العصر وعقلانية الواقع، لعادوا إلى الريادة.

فالإسلام قادر على تحقيق ريادة المسلمين المعاصرين كما كان قادرا على ريادة المسلمين في عصور عدة، لكن بشرط أن نعيه، ونفهمه، ونعقله، ونطبّقه... لا أن نتغنّى به فقط!.

المحور الثاني: العقل في الإسلام

العقل في الإسلام ليس مجرد آلة للفهم، بل هو مناط التكليف، وبه يفرّق الإنسان بين الخير والشر، وبين الهدى والضلال.

العقل في الإسلام له مكان ومكانة كبيرة جدا في الإسلام وهو ركن ركين ومكين في الحياة، وهو من أجل نعم الله تعالى على عباده، ولولاه لما كان الإعمار، ولما كان التطوير والتجديد واستمرار الحياة... وبقدر تفعيل العقل ورفع الأغلال التي تعيق عمله وأثره وتأثيره يكون التقدم والازدهار...

وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة في القرآن الكريم ترمي إلى تدريب العقول على استقراء واستلهام آيات الله وآلائه في كتابيه: (المسطور والمنظور)، والسباحة الفكرية في ملكوته شمالا وجنوبا شرقا وغربا.. طولا وعرضًا وعمقًا، وبشكل دائب لا ينقطع؛ للارتقاء به في مراتب التفكير العليا، وحتى يظل في كنف أنوار الله، بعيدًا عن الشطط أو الانحراف..

والقرآن الكريم في بناء الشخصية فكريا وعلميا، فقد كانت نظرته لهذه القضية تتسم بالتكامل والتنوع والشمول، لتدريب العقول على استقراء واستلهام آيات الله وآلائه في كتابيه: المسطور والمنظور، والسباحة الفكرية في ملكوته طولا وعرضًا وعمقًا وبشكل دائب لا ينقطع.. بل إنه تعالى رفع مقام التأمل والتذكر والتفكر، بأن جعل التفكر فريضة إسلامية، كفرائض العبادات وشعائرها..

لقد بدأ الأمر الإلهي الكريم في القرآن العظيم بقوله: "اقرأ"، ثم أمر الإنسان أن يتدبر في نفسه وفي خلقه (وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الذاريات: ٢١)، وأمره أن يتدبر ويتفكر ويتذكر ويتأمل وينظر ويعمق النظر ويقلبه في كل آلائه ومخلوقاته.. في كل زمان وفي كل مكان.. ليظل عقل المسلم وفكره في عمل دائب؛ لإفادة النفس والكون والحياة.. آيات كثيرة جدا تؤكد مكانة هذا البناء الفكري والعقلي والعلمي.

لقد سبق القرآن العظيم وهو يبني شخصية المسلم فكريًّا وعقليًّا إلى الارتقاء في مراتب التفكير العليا من ناحية، وإلى احترام قيم العلم (البحث، والتأمل، والتوثيق، والكتابة، والموضوعية، والنزاهة، والحيادية، والتفكير المعمق، والعمل الجماعي، والشورى، والتعددية وقبول الآخر، واحترام المخالف، والابتعاد عن الانفعالات الفكرية، والرجوع لأهل الذكر في كل مجال والرضوخ لأقوالهم، ومجاهدة العقل والفكر لكي يكون متوازنًا، والإيمان

بالفروق الفردية، والتسامح، والتركيز على غرس القيم الدافعة للتقدم، وعلى رأسها قيم الإحسان والإتقان والبراعة في التفكير والتعبير) من ناحية أخرى..

كما دعا القرآن إلى البناء العقلى والفكري من خلال التربية البصرية وتعميق النظر في بديع صنع الله في الكون، فالناظر المدقق في ذلك يلحظ أن الإنسان تعلم الفن والذوق الرفيع من الطبيعة والكون.. من الزروع والورود والزهور والنباتات.. ومن الرخام، والطاووس، والطيور، والأسماك، وقوس قُزح وتداخل الألوان في السماء وغيرها من مخلوقات الله..

كما دعا أيضا إلى البناء العقلى والفكري من خلال التربية السمعية بتدريب الأذن على السباحة والسياحة في ملكوت الله، وسماع النغم الطاهر الذي خلقه الله في هذا الكون، فمن أنغام الكون (أصوات الرياح، وأصوات البحار، وأصوات الطيور والمخلوقات.. أصوات مرور الهواء بين الزروع والأشجار... وغيرها)، كل ذلك من أجل أن تتأدب النفوس وتتهذب وترقى في هذا الحياة..

لذلك عاتب الله تعالى أولئك الذين لا يُعملون عقولهم، ويعطلونها، وشبههم بالأنعام، بل هم أضل قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف: ١٧٩).

مادة عقل في القرآن

لفظ "عقل"ومشتقاته ورد في القرآن الكريم (٤٩ مرة) بصيغ مختلفة، وكلها تدور حول العقل والفهم والإدراك، وتُستعمل في سياق الدعوة للتدبر والنظر والتأمل في آيات الله الكونية والشرعية.

على النحو التالي:

١. تعقلون: ٢٤ مرة
٢. يعقلون: ٢٢ مرة
٣. عقلوه: مرة واحدة
٤. نعقل: مرة واحدة
٥. يعقلها: مرة واحدة (٦) .

تأملات:

-لم يرد في القرآن كلمة العق "العقل" الاسم الصريح بصيغته الاسمية، بل جاءت دائمًا أفعالًا.

-التركيز القرآني كان دائمًا على وظيفة العقل (التفكر – الفهم – التمييز – التدبر) وليس على مجرد وجوده كاسم.

-الآيات التى ورد فيها مشتقات "عقل" غالبًا ما تكون خاتمتها: "لقومٍ يعقلون"أو "أفلا تعقلون."

هذا عن مادة عقل... وبالجملة ورد التوجيه بالتعقل والتدبر والتفكر والنظر والتذكر ....إلخ في القرآن الكريم ، قرابة ٤٥٠ مرة... أي أكثر من مجموع الأمر بكل فرائض الإسلام ومحاسن الأخلاق حقًا ، هذه هى " الفريضة الغائبة " كما قال أستاذنا عباس العقاد ، رحمه الله .

فريضةُ التفكيرِ في كتابِ الإسلام:

يقولُ الأستاذُ عباس محمود العقاد رحمه الله:

من مزايا القرآنِ الكثيرةِ، مزيةٌ واضحةٌ، وهى تنويهه بالعقل، والتعويلُ عليه في أمر العقيدةِ وأمر التكليف.

والقرآنُ الكريمُ لا يذكرُ العقلَ إلا في مقامِ التعظيمِ، والتنبيهِ إلى وجوبِ العملِ به، والرجوعِ إليه.

(٦) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: كتاب الشعب، ١٣٧٨هـ ، ص ٤٦٨-٤٦٩.

ولا تأتي الإشارةُ إليه عارضةً ولا مقتضبةً في سياقِ الآية، بل هى تأتي في كلِ موضوع من مواضيعِها مؤكدةً جازمةً، باللفظِ والدلالةِ، وتَتَكرَّرُ في كلّ معرض من معارض الأمر والنهى، التى يُحثُّ فيها المؤمنُ على تحكيم عقلِه، أو يُلامُ فيها المُنكِرُ على إهمالِ عقلِه، وقبولِ الحَجْر عليه.

تعريف العقل:

فُقِيلَ في مدلولِ لفظِه العام:

ملكةٌ ينطقُ بها الوازعُ الأخلاقى، أو المنعُ عن المحظور والمنكر، ومن هنا كان اشتقاقُه من مادةِ "عَقَلَ"، التى يُؤخَذُ منها "العِقال".

خصائص العقل:

ومن خصائص العقل:

– ملكةُ الإدراك التى ينطقُ بها الفهمُ والتصويرُ.

– أنه يتأملُ فيما يُدركه، ويقولُ به على وجوهٍ، ويستخرجُ منه بواطنَه وأسرارَه، ويُبْنى عليها نتائجَه وأحكامَه.

وهذه الخصائصُ في جملتها تجمعُها "ملكةُ الحُكم"، وتتصلُ بها "ملكةُ الحكمة"، وتتصلُ كذلك بـ"العقل الوازع"، إذا انتهت حكمةُ الحكيم به إلى العلم بما يُحسَن وما يُقبَّح، وما ينبغى له أن يطلبَه، وما ينبغى له أن يتباهى به.

– ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى: الرُّشْد؛ وظيفةُ الرُّشد فوق وظيفةِ العقل الوازع، والعقل المُدرك، والعقل الحكيم، لأنها تحتوي جميعَ هذه الوظائف، وعليها مزيدٌ من النضج، والتمام، والتميُّز بمزيدٍ من الرشاد، حيثُ لا نقصَ ولا اختلال.

فريضةُ التفكير في القرآنِ الكريم تشملُ العقلَ الإنسانى بكل محتواه من هذه الوظائف، بجميع خصائصِها وملَكاتِها.

فهو يُخاطبُ:

- العقلَ الوازع،
- والعقلَ المُدرك،
- والعقلَ الحكيم،
- والعقلَ الرشيد،

ولا يذكرُ العقلَ عرضًا مقتضبًا، بل يذكرُه مقصدًا مفصلًا على نحو لا نظيرَ له في كتابٍ من كُتب الأديان.

ودينى الإسلامى دينٌ لا يعرفُ الكهانةَ، ولا يتوسطُ فيه السدنةُ والأحبارُ بين المخلوقِ والخالق،

ولا يفرضُ على الإنسانِ قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعةِ وليّ متصل، أو صاحب قُدرةٍ متخيلة،

فلا ترجمانَ بين اللهِ وعبادِه يملكُ التحريمَ والتحليلَ، ويقضى بالحرمانِ أو بالنجاح.

فليس في هذا الدين إذن أمرٌ يتجه إلى الإنسانِ من طريق الكُهّان، ولن يتجهَ الخطابُ إذًا إلا إلى عقل الإنسانِ حرًّا طليقًا من سلطانِ الهياكل والمحابِر، أو سلطانِ كهانةِ المحكّمين فيها بأمر الإلهِ المعبود، فيما يدينُ به أصحابُ العباداتِ الأخرى.

لا هيكلَ في الإسلام، ولكن حيث لا هيكلَ، فكلُّ أرض مسجد، وكلُّ مَن في المسجدِ واقفٌ بين يدي الله.

ودينٌ بلا هيكل ولا كهانة، لن يتجهَ فيه الخطابُ أبدًا إلى غير الإنسانِ العاقل، حرًّا طليقًا من كلّ سلطانٍ يحولُ بينه وبين الفهم القوي والتفكير السليم.

كذلك يكونُ الخطابُ في الدين الذي يُلزمُ كلَّ إنسانٍ "طائرَه في عُنقِه"، ويُحاسَبُ بعملِه، فلا يُؤخَذُ أحدٌ بعمل غيره. قال تعالى: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...) (فاطر: ١٨)، وقال: (...كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) (الطور: ٢١)، وقال: (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) (النجم: ٣٩-٤١) .

فليس في الإسلام إنسانٌ ينجو بالميلادِ أو يهلكُ به،

ولكنه الدينُ الذي يُوكِلُ فيه النجاحَ والهلاكَ بسعى الإنسانِ وعملِه،
ويتولى فيه الإنسانُ هدايتَه بفهمِه وعقلِه،
ولا يُبطَلُ فيه عملُ العقل، لأن الله بكل شيءٍ محيط.
فإن الله خلقَ العقلَ للإنسان، لا ليسلبَه القدرةَ على التفكير، ولا ليجعله تابعًا للضلالِ والتقدير.
وعلى هذا النحو يتناسقُ جوهرُ الإسلام ووصاياه،
وتأتي فيه الوصايا المتكررة بالتعقّلِ والتمييز، منتظِرةً مُقدَّرة، لا موضعَ فيها للمُصادفة،
ولا هى ممّا يَطرُدُ القولُ فيه متفرّقةً غيرَ متصلةٍ على نَسَق مرسوم؛
فإنها لوصايا منطقية في دين يفرض المنطقَ السليم على كلّ مستمع للخطاب، قابل للتعلم.
وهكذا يكونُ الدينُ الذي تتصلُ العبادةُ فيه بين الإنسانِ وربّه بغير واسطةٍ ولا محاباة،
ويُحاسبُ فيه الإنسانُ بعلمِه، كما يهديه إليه عقلُه،
ويُطلَبُ فيه من العقل أن يبلغَ واسِعَه من الحكمةِ والرشاد.
حين يكونُ العملُ بالعقل أمرًا من أوامر الخالق،
يمتنع على المخلوق أن يُعطي عقلَه مراضاةً لمخلوقٍ مثلِه، أو خوفًا منه،
ولو كان هذا المخلوقُ جَمهرةً من الخَلْق، تُحَيِّدُ الجماعاتِ، وتتعاقدُ مع الأجيال.
والإسلامُ لا يقبلُ من المسلم أن يُلغي عقلَه اتباعًا لسُنّةِ آبائه وأجدادِه،
ولا يقبلُ منه أن يُلغي عقلَه خنوعًا لمن يسخرُ باسم الدين في غير ما يُرضى العقلَ والدين،
ولا يقبلُ منه أن يُلغي عقلَه رهبةً من أقوياءِ وتُجّار الدين،
ولا يُكلِّفُ في أمر من هذه الأمور شِقَّةً لا يقدِرُ عليها،
إذ القرآنُ الكريمُ يُكرّرُ في مواضعَ كثيرةٍ أن اللهَ لا يُكلِّفُ نفسًا ما لا طاقةَ لها به،
ولا يطلبُ من خلقِه غيرَ ما يستطيعون.

قال تعالى: (...لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ...) (البقرة: ٢٣٣)، وقال سبحانه: (... لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...) (الأعراف: ٤٢)، وقال تعالى: (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ...) (المؤمنون: ٦٢)، وقال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة: ٢٨٦).

والإسلامُ حين يأبى الإنسانَ أن يعنو ـ أي يخضع في ذلّة ـ بعقلِه كلِّه لهذه السطوةِ الجائحة، إنما يُعطى العقلَ حقَّه في مقاومتِها، ولا يكتفى بأن يَفرضَ عليه واجبَ المقاومة، وإنما يَمدُّه بالحُجّةِ التى تُعينُه عليها، حيثُ لا حجة له بين يديها. فهو يُكلِّفُه ويُعينه، وهو يُثيره، ويضع في يدِه السلاحَ الذي يشحذه في ثورتِه، فهو نَصيرٌ مُعين، يُلقى العبء، ويُعطي المَدَدَ الذي يُعينُه عليه [٧].

المحور الثالث: العلم وقود نور العقل

إنارة العقل بالعلم وأثرها في الارتقاء بالحياة

العلم هو النور الذي يضيء العقل، وهو أساس كل قوة، وركيزة التقدم والازدهار. فبالعلم:

- تُبنى الحضارات،
- وتُحل المشكلات،

(٧) الأستاذ عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، القاهرة: ص ٧-١٧ بتصرف

- وتُواجه التحديات،
- وتتحسن جودة الحياة في شتى المجالات: من الصحة والتكنولوجيا، إلى الاقتصاد والبيئة.

والقوة العلمية الناجمة عن تنمية العقول المبدعة وإنارتها بالعلم النافع ورعايتها، باعتبارها استثمارًا استراتيجيًا في نهضة المجتمعات تعنى تحويل المعرفة إلى تطبيقات عملية ومبتكرات نافعة.

وفي ضوء تعاليم الإسلام، تُصنع العقول وتُنار بالعلم، الذي يبنى الإنسان، ويُرقى الحياة، ويواجه التحديات، ويتفاعل مع المستجدات، كل ذلك من خلال الارتكاز على أسس متكاملة تضمن:

- سلامة العقل
- سلامة المقصد
- وسلامة العقيدة

ومن أبرز هذه الأسس:

العقيدة الصحيحة والتوازن بين العقل والوحي

يبدأ البناء بالإيمان بالله وتثبيت العقيدة، مما يمنح العقل هُويته السليمة، ويؤسس لتفكير راسخ متزن.

العلم والتفكير النقدي والإبداعي

الإسلام يدعو إلى طلب العلم، والتفكر، والبحث عن الحقيقة، مع تشجيع الإبداع في إطار منهجية علمية واضحة.

ربط العلم بالإيمان والعمل

فالعلم لا ينفصل عن الأخلاق، والإيمان لا يكتمل دون عمل صالح يسهم في البناء والإصلاح وخدمة الناس.

غرس القيم والأخلاق

مثل العدل، والصدق، والأمانة، فهى أساس لبناء إنسان متوازن ومسؤول، قادر على الإسهام الإيجابي في المجتمع.

التوازن النفسي والروحي

عبر العبادات والذكر، يجد العقل سكينته، وتتوازن النفس، مما يفتح الأبواب أمام التفكير السليم والرؤية الواضحة.

تشجيع الحوار والتعددية

الإسلام يرسخ مبدأ احترام الآخر، والحوار بالحسنى، وقبول التنوع، بما يعزز التعايش والتلاحم المجتمعى.

الابتكار والحرية الفكرية

فالإبداع جزء أصيل من الحضارة الإسلامية، والحرية المسؤولة تحفز العقول وتُطلق طاقاتها نحو البناء والتطوير.

أيها الأخوة المؤمنون: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسولُ الله عباد الله: أوصيكم ونفسى بتقوى الله..يقول الحق (تبارك وتعَالَى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢) أما بعد..

المحور الرابع: آثار إنارة العقل بالعلم فى صناعة التقدُّم والازدهار

كما رأينا لقد رفع الإسلام شأن العقل وأعلى مكانته، ودعانا إلى إعماله وعدم إهماله، وطالبنا بالتفكر والتدبر المستدام، وإذا صُقل العقل بالعلم، أصبح صاحبه بصيرًا في دنياه، مُبصرًا في دينه، لا يسقط في شبهات، ولا يتبع الشهوات، لأنه يقيس الأمور بميزان العلم، ويزنها بميزان الحكمة.

ومن هنا، فإن الجهل يُعمى البصيرة، ويُورث الخرافة، ويُؤدي إلى الانحراف، أما العلم فيُنير الطريق، ويُجنّب صاحبه الزلل. وقد قيل: "العقل كالمصباح، والعلم كالزيت، فإذا لم يكن زيت، انطفأ المصباح".

إن الحضارات تُبنى بالعلم والفكر والعمل، وقد كانت حضارة المسلمين في أوجها حينما أقبلوا على العلم، فبرعوا في الفلك، والطب، والهندسة، والرياضيات، والكيمياء، والفلسفة، وغيرها.

وكم أنارت عقول المسلمين الدنيا! فكان ابن سينا والرازي والخوارزمى وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم، ممن اعتمدت عليهم الحضارة الغربية في نهضتها، ويشهد بذلك التاريخ.

نحن أمة "اقرأ"، ولكن للأسف، صرنا من أقل الأمم قراءة واهتمامًا بالعلم.

أمة سيدنا محمد (ﷺ) يجب أن تكون رائدة في العلم، سباقة في الاكتشافات، مسهمة في كل ما يخدم البشرية.

فلنسأل أنفسنا: هل نحن نُنير الدنيا بعقولنا كما أراد الله لنا؟ أم تركنا العلم، فصارت عقولنا خامدة، وانطفأت أنوارنا؟

فلنعاهد الله على أن نُحسن استخدام عقولنا، وننيرها بالعلم، ونُربي أبناءنا على حب العلم والقراءة، ونبنى أجيالاً مثقفة، مؤمنة، ناهضة، تسهم في نهضة أمتنا

احذروا الجهل، فإنه سبب الشبهات، والانحراف، والتكفير، والتعصب، وسوء الظن بالله، وبعباده

واحذروا الغرور العلمى، فإن العلم الحق يورث التواضع، لا الكبر، قال أحد العلماء الكبار:

"كلما ازددت علمًا، ازددت علماً بجهلى".

إنَّ العقلَ إذا استنارَ بنورِ العلم، تبدَّدَت عنه ظلماتُ الجهل، وتحول إلى شعلةٍ مضيئةٍ في طريق النهضةِ والرقيّ. والعلمُ ليس مجردَ معلوماتٍ تُكتَسَب، بل هو طاقةٌ خلاقةٌ تنهضُ بالأفرادِ والمجتمعات، وتُسهم في صناعة الحضارة والازدهار.

وفيما يلي أهمُّ الآثار المباركة لإنارة العقل بالعلم:

١. الهداية إلى الحق والنور

العقلُ المنير يرى بنور الله، ويميز بين الحق والباطل، فلا ينخدع بالشبهات، ولا يُضلَّه الجهل، قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر: ٩). فالعلمُ يفتحُ بصيرةَ الإنسان، ويهديه إلى طريق النجاة، في الدنيا والآخرة.

٢. بناء العقل النقدي وتحرير الإرادة

العلمُ يُنمّي قدرة الإنسان على التفكير والتحليل والاستنتاج، فلا يكون مقلِّدًا بلا وعى، بل باحثًا عن الدليل، طامحًا إلى الحقيقة، مسهِمًا في اتخاذ القرارات السليمة، وقادرًا على تجاوز التحديات.

٣. دافع نحو الإبداع والاختراع

العقلُ المنوَّرُ بالعلم هو أساسُ التقدُّم العلميّ والتكنولوجى، فكم من أمةٍ خرجت من الظلمات إلى النور حين أقبلت على العلم والتعليم، وصارت رقماً مهما في معادلة الحضارة! وقد كان المسلمون الأوائل رواداً في شتى العلوم، لأنهم جمعوا بين الإيمان وتفعيل العقل.

٤. ترسيخ القيم وتهذيب السلوك

العلمُ الحقُّ يورث الخشيةَ والتواضعَ، ويمنحُ الإنسانَ تربيةً روحيةً وأخلاقية، فيكون علمًا يبنى لا يهدم، ويصلح لا يفسد، ويُنمّي في الإنسان روح المسؤولية تجاه نفسه وأسرته ومجتمعه.

٥. المشاركة في بناء المجتمعات المزدهرة

بالعقل المستنير تُبنى الأوطان، وتُعمرُ الأرض، وتُحلُّ المشكلات، فالمتعلمون هم طليعةُ النهضةِ، وقادةُ الإصلاح، وصُنّاعُ الوعى. ومن لا يملك عقلاً مستنيراً، سيظلُّ في ذيل الركب، تابعًا لا متبوعًا.

٦. التقرب من الله والارتقاء الروحي

العلم طريق إلى الله، وكلما ازداد العقل نورًا، ازداد العبد خشيةً وتواضعًا لله، وفهمًا لشرعه، وتدبرًا في كتابه، قال تعالى: (...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...) (فاطر: ٢٨). وبالعلم يعرف العبد ربه، فيعبده على بصيرة، لا على تقليد.

٧. التمكين في الأرض والتفوق في ميادين الحياة

العلمُ سلاحُ التمكين، وأساسُ القوةِ، ووسيلةُ السيادةِ في هذا العصر. فكلُّ أمةٍ تريد أن تكونَ قويةً مهابةً عزيزةً، لا بد أن تجعل من تعليم أبنائها وتنوير عقولهم بالعلم أولوية قصوى.

وهكذا فالعقلُ المنوَّرُ بالعلمِ هو الركن الركين لكلِّ تقدُّمٍ حضاريّ، وكلُّ نهضةٍ تبدأ من كتاب، وكلُّ ازدهارٍ يولد من معملٍ وقاعةِ علم. وما تأخَّرَ المسلمون إلا حين أهملوا عقولهم، وما تقدَّم غيرهم إلا حين أعطوا للعقلِ والعلمِ حقَّه.

حضارتنا.. حضارة الإعمار والعمارة والسلام

يقول أستاذنا العلامة والمفكر الإسلامي الكبير أ.د/ نبيل السمالوطى، بيَّن القرآن والسنة أنواعاً كثيرة من العمارة المطلوبة و التي يجب علي الخطاب الإسلامي إبرازها و التركيز عليها و أهمها :

أولاً: عمارة الإنسان، بالتربية الإسلامية والإيمانية، والتربية على قيم الإحسان وغرس العقيدة الصحيحة والقيم ومكارم الأخلاق.

ثانيا: عمارة الروح، بربطها بخالقها من خلال العقيدة والعبادات وتطبيق أحكام الشريعة في النيات والأفكار، والسلوك، والعلاقات... الخ، ومن خلال التقوي ومراقبة الله في السر والعلن.

ثالثا: عمارة النفس، بتزكية النفس اللوامة، وقمع النفس الأمارة بالسوء، و تنقية النفس من كل الآثام و الشرور، كالحقد والحسد، والكراهية، والغيبة، والنميمة، وعدم حب الخير للآخرين، والأنانية، والأثره... الخ.

رابعا: عمارة العقل، بالمعرفة، والعلم والتعليم... لكل ما ينفع الإنسان وأسرته ومجتمعه و الناس جميعاً. وقد كانت أول آية نزلت في الذكر الحكيم هي (اقرأ).

خامسا: عمارة الجسد، بالصحة، والنظافة، والاعتدال، وإعطاء كل ذي حق حقه، وبالرياضة المقبولة، والبُعد عن كل ما يؤذي الجسد من محرمات كـ: الخمر، والمخدرات، والزنا، والإسراف في كل الأمور (أكل – شرب – سهر....) وهذا يعني تطبيق منهج الوسطية المنضبطة بأحكام الشرع.

سادسا: عمارة الأسرة، وتطبيق أحكام الإسلام ومعاييره، في الاختيار، وبناء الأسرة، وفي وظائفها، وأداء مهام أعضائها. سواء في مجال حفظ حقوق كل عضو، أو في مجال حُسن إعداد الأولاد وتربيتهم، أو في مجال العشرة بالمعروف، وتحقيق السكن والمودة والرحمة لأعضائها.

سابعا: عمارة المجتمع، بتطبيق منهج الله في الشورى، وحق الناس في الحرية والتمتع بحقوق الإنسان وحفظ كرامتهم المضمونة من الخالق سبحانه، وعدم التمييز بين الناس علي أي أساس غير التقوى، والعمل الصالح، والخُلق الفاضل، وتحقيق الخير والمصالح المشروعة. وعمارة المجتمع إنما تكون بإعمال فريضة التنمية، وإعمال العقل، والوصول إلى سنن الله في الكون والحياة... وهذا يعني تفعيل فريضة طلب العلم، لبناء القوة الشاملة في المجتمع المسلم هكذا تكون عمارة المجتمع المسلم بتطبيق قيم النهضة والرحمة، والعدالة والإحسان.

ثامنًا: عمارة المجتمع الدولي، بإعلاء وإفشاء قيم الأمن والسلام والتعايش السلمي وغيرها من القيم التي أوجبها القرآن الكريم، وجاءت واضحة وصريحة في أحاديث الرسول (ﷺ)، عند تأسيسه لأول دولة إسلامية في المدينة،

حيث كان أول ما قال: (يا أيُّها النَّاسُ أفشوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ، والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنَّةَ بسَلامٍ) (٨).

والسلام هو الأصل في العلاقات الدولية، أما الحرب في الإسلام فهى كريهة ولا يرغب فيها إلا للضرورة القصوى، (لا تتمنوا لقاء العدو) فهى حالة طارئة يتم اللجوء إليها عند الضرورة.

وقد حرص الإسلام على إرساء ثقافة التعايش السلمى داخل المجتمعات، وبين الدول، فلا عدوان إلا على الظالمين. ولم تشرع الحرب في الإسلام إلا للدفاع عن الدولة، أو عن الدعوة، أو عن المستضعفين، أو للقضاء على الفتنة. وقد سبق الإسلام كل القوانين الدولية والإنسانية المعاصرة فيما يتصل بتحقيق الأمن والسلام وعدم نقضِ العهود، وإعمال المعاهدات التي تحفظ حقوق الدول و المجتمعات.

تاسعا: عمارة الدنيا، بتطبيق أمر الله في عمارة الأرض من خلال الإيمان بأركانه الستة، والإسلام بأركانه الخمسة، وعمارة الأرض بالزراعة و الصناعة والتجارة والخدمات، وايضا بالاستمتاع بالطيبات التي أحلها الله، قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف: ٣١)، فالعمارة في المفهوم الإسلامي هي التنمية الشاملة المنضبطة بالقيم الأخلاقية.

عاشرا: عمارة الآخرة، فالدنيا مزرعة الآخرة. والدنيا دار اختبار وابتلاء، وبناء للآخرة. وتتمثل عمارة الآخرة في قوله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص: ٧٧) ، كما تتمثل في آخر آية نزلت في القرآن الكريم وهى قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (البقرة: ٢٨١) (٩).

اللهم اجعلنا من أهل العلم، وأحي قلوبنا بنوره، واستعملنا في طاعتك، ولا تفتنا بغيرك.

اللهم نور بعقولنا، واهدنا إلى ما تحب وترضى، واجعلنا نورًا في ظلمات هذا العالم.

اللهم احفظ مصر شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، طولها وعرضها وعمقها، بحارها وسماءها ونيلها، ووفق يا ربنا قيادتها وجيشها وأمنها وأزهرها الشريف، وعلماءها، واحفظ شعبها، وبلاد المحبين يا رب العالمين، اللهم اشف مرضانا وارحم موتانا اللهم طهّر قلوبنا من الكبر، وزيّنها بالتواضع،اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارِك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..وأقم الصلاة.

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

والحاصل على المركز الأول على مستوى الجمهورية في خدمة الفقه والدعوة (وقف الفنجري ٢٠٢٢م)

المدير التنفيذي السابق لرابطة الجامعات الإسلامية- عضو نقابة اتحاد كُتَّاب مصر

واتس آب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman٥٥٥٥٥@gmail.com

يُرجي من السادة الأئمة والدعاة متابعة الصفحة الرسمية، وعنوانها:

(الدكتور أحمد علي سليمان)؛ لمتابعة كل جديد https://www.facebook.com/drahmedalisoliman/

(٨) أخرجه ابن حبان – صحيح.

(٩) أ.د/ نبيل السمالوطي: الخطاب الإسلامي وحضارة العمارة والسلام في الإسلام، القاهرة: مجلة كلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر، العدد الخامس عشر، يونيو ٢٠١٥، ص ٣١-٣٤، بتصرف.